جماليات التّبليغ: لغة الجسد النّبويّة ودلالاتها المقاصدية

The Aesthetics of Conveyance: Prophetic Body Language and its Maqasidic (Teleological) Dimensions

حاجي شميسة

جامعة جيجل (الجزائر)، choumaissa.hadji@univ-jijel.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2026 / 03 /24	2026 / 04/24	2026 / 06 / 01

مُلَخَّصُ البَحث

يستهدف هذا البحث الكشف عن الأبعاد الدلالية والمقاصدية لـ "لغة الجسد" في السّنة النّبويّة، باعتبارها رافداً بيانياً لا ينفصل عن الوحي القولي. تكمن إشكالية الدراسة في رصد كيفية استثمار النبي ﷺ للمؤشرات غير اللفظية (الإيماء، الهيئة، التعبيرات الوجهية) لتحقيق مقاصد شرعية وتربوية عليا. وخلص البحث إلى أن السلوك الجسدي النبوي اتسم بـ "القصدية التبليغية" التي ساهمت في ترسيخ الأحكام، وتعزيز التواصل الوجداني، وبناء نموذج قيمي يتجاوز حدود النص المنطوق؛ مما يفتح آفاقاً جديدة لفهم "البيان النبوي" كمنظومة اتصالية متكاملة تجمع بين كمال الهيئة وجلال المقصد.

الكلمات المفاتيح: لغة الجسد، السنة النبوية، المقاصد الشرعية، التواصل غير اللفظي، البيان النبوي.

Abstract

This research aims to uncover the semantic and Maqasidic dimensions of "body language" in the Prophetic Sunnah, considering it an integral communicative resource alongside verbal revelation. The study addresses the problem of how the Prophet ﷺ employed non-verbal cues—such as gestures, posture, and facial expressions—to achieve supreme Shar'i and pedagogical objectives. The findings conclude that Prophetic physical conduct was characterized by "communicative intentionality," which played a pivotal role in consolidating legal rulings, enhancing emotional engagement, and establishing a value-based model that transcends the spoken text. Thus, it offers a new perspective on "Prophetic Eloquence" as a comprehensive communicative system integrating physical perfection with sublime purpose.

keywords: Body Language, Prophetic Sunnah, Maqasid al-Sharia, Non-verbal Communication ,Prophetic Eloquence

1. مقدمة:

تتجاوز ظاهرة البيان النّبوي في جوهرها الأنطولوجي حدود "اللسانيات الملفوظة" لتستقر في فضاء "الحال المشاهد"، حيث لم يكن الجسد المصطفوي ﷺ مجرد وعاء بيولوجي يحمل الرّسالة، بل كان في حد ذاته "نصاً موازياً" يفيض بالدّلالات، ويشكل مع القول وحدة عضوية تواصلية تهدف إلى نقل المطلق الإلهي إلى النّسبي الإنساني في أبهى صور التّجسيد الجمالي والتّشريعي؛ ولما كانت السّنة النّبويّة هي التّبيان العملي للقرآن الكريم، فإن هذا التّبيان لم يقتصر على صرامة الأحكام المنطوقة، بل انسحب بظلاله على أدقّ الحركات والسّكنات، والإيماءات واللّحظات، مما يجعل من "لغة الجسد النّبويّة" حقلاً معرفياً بكراً يتطلب حفرًا إبستمولوجياً يربط بين فيزياء الحركة وبين مقاصد الشريعة الغراء.

إن المتأمّل في مدونات السّنة المشرفة يلحظ حضوراً طاغياً لـ"السيميولوجيا الجسدية" التي تتوزع بين إشارة اليد، وبريق العين، وطلاقة الوجه، وهيئة الجلوس، بل وحتى الصمت الهادف، وهي في مجملها تشكل "منظومة إشارية" متكاملة ترفد النّص القولي وتمنحه أبعاده النفسية والتربوية، ومع ذلك، فإن العقل الأصولي والحديثي – في سياقات تاريخية معينة – قد ركن إلى تغليب "المركزية اللفظية" (**Logocentrism**) في مقاربة الوحي، مما أدى إلى نوع من الانحجاب عن قراءة المقاصد الكلية الكامنة في "الفعل الجسدي" بوصفه تشريعاً صامتاً، أو بياناً حالياً يختصر مسافات التأويل ويحقق مقصود الشّارع في التفهيم والبيان بأقصر الطرق وأنفذها إلى الوجدان البشري.

ومن هنا، تبرز إشكالية هذا البحث لتطرح تساؤلاتها الوجودية والمعرفية حول طبيعة العلاقة الجدلية بين "الجسد المبلغ" وبين "المقصد الشرعي"؛ فهل يمكن اعتبار الحركات النّبويّة مجرد "أفعال جبلية" تقتضيها الضرورة البشرية، أم أنها "أفعال بيانية" محفوفة بالقصدية والتّدبير الإلهي؟ وكيف استطاعت لغة الجسد النّبويّة أن تؤسس لمقاصد السّلم الاجتماعي، والتقدير الإنساني، والضّبط التّشريعي دون الحاجة إلى منطوق لغوي؟ إننا هنا أمام "اشتباك نظري" معقد، يضع التّراث الحديثي في مواجهة مع كشوفات "الأنثروبولوجيا الثّقافية" و"سيمياء التّواصل" و"علم النّفس الحركي"، في محاولة لاستنطاق المسكوت عنه في الهيئة النبوية، واستكشاف كيف تحول الجسد إلى "أداة إقناعية" تذوب فيها الفوارق بين المادة والرّوح، وبين الشّكل والمضمون.

وعليه، فإن هذا البحث لا يروم مجرد السّرد الوصفي لتلك الإشارات، بل يسعى إلى تحقيق حزمة من الأهداف الإستراتيجية، لعل أبرزها:

- ✓ تأصيل "سيميائية الجسد" كأداة من أدوات البيان الأصولي، وتجاوز النظرة التجزيئية التي تفصل بين القول والفعل.
- ✓ تفكيك الشّفرات التّواصلية في السّلوك النّبوي وربطها بالمقاصد الضّرورية والحاجية والتّحسينية، لبيان كيف خدم الجسد حفظ الدّين والأنفس والعقول.
- ✓ تقديم مقاربة بينية تزاوج بين علوم الوحي وعلوم الاتّصال الحديثة، بما يسهم في تحديث الخطاب الدّيني وجعله أكثر ملامسة للواقع المعاصر الذي يقدّس "الصّورة" و"الحال" كأدوات للتأثير.

- ✓ الكشف عن جماليات السّلوك النّبويّ بوصفه نموذجاً للاتّصال الإنساني الكامل، الذي يراعي الفروق الفردية ويخاطب العقل والعاطفة عبر "لغة كونية" لا تحجبها الحواجز اللسانية.

2.المرجعية السيمائية للجسد النّبوي ومركزية الإشارة في البيان

1.2.فلسفة الحركة الجسدية بين الجبلية البشرية والقصدية التشريعية:

إنّ الخوض في غمار "الجسد النبوي" يستوجب ابتداءً تحرير المحل النزاعي في المدونات الأصولية حول طبيعة الأفعال النبوية وتقسيماتها التقليدية؛ فإذا كان الأصوليون قد استقر لديهم تقسيم أفعاله ﷺ إلى أفعال جبلية تقتضيها الضرورة البشرية (كالأكل والشرب والمشي) وأفعال تشريعية تقتضيها وظيفة البلاغ، فإن القراءة "المقاصدية الحداثية" -التي تتبناها هذه الدراسة- ترى في "الهيئة الجسدية" المصاحبة للقول وحدةً تداوليةً عضوية لا تقبل التجزئة أو الفصل الميكانيكي. إننا نذهب إلى أن الجسد النبوي في لحظة البلاغ يتحول من مجرد كينونة فيزيائية تتحرك بمقتضى الطبع البشري إلى "نسق سيميائي" واعي يروم محاصرة المعنى اللغوي ومنع انزلاقه في متاهات التأويل البعيد.[1]

إنّ هذه "القصدية التبليغية" تجعل من حركة اليد، أو التفاتة الجسد بكليته، أو حتى إطراق الرأس لحيظات، علاماتٍ إيقونية لا تكتفي بشرح النص، بل تؤسس لـ"تداولية حضور" تمنح المستمع يقيناً حسياً يواكبه اليقين القلبي. ومن هنا، فإننا لا نتعامل مع لغة الجسد بوصفها "زينة بيانية" أو "تحسيناً خطابياً" يمكن الاستغناء عنه، بل بوصفها "ضرورة تبيينية" تقتضيها طبيعة الرسالة الخاتمة التي تتوجه للإنسان بكليته: عقلاً، وروحاً، وحساً؛ إذ إن النص القولي يظل في حيز "التجريد الذهني" ما لم يتدخل الجسد ليعطيه "أبعاده الوجودية" ويضعه في سياق "التموضع المكاني والزماني" الذي يفهمه العامي والفقيه على حد سواء، وهو ما يجسد مقصد الشريعة في "العالمية" و"الوضوح" و"رفع الحرج" عن الفهم البشري.

2.2.سيمياء اليد و إيقاع الإشارة (دراسة تداولية مقاصدية):

تعتبر اليد في الهدي النبوي الأداة الأكثر حركية وتأثيراً في الفضاء الاتصالي، فهي "المترجم" البصري الذي ينقل المفاهيم الذهنية المجردة من بروجها العاجية إلى صور حسية قريبة المأخذ تلامس شغاف القلوب وتستقر في خلايا الذاكرة بصرياً. والمتأمل في متون السنة يجد أن النبي ﷺ قد استثمر "فيزياء اليد" في سياقات مقاصدية بالغة الدقة والتركيب، يمكن رصد تجلياتها في النماذج التحليلية الآتية:

أ. مقصد الوحدة العضوية والالتحام البنيوي (سيمياء تشبيك الأصابع):

حينما أراد النبي ﷺ ترسيخ مفهوم "المؤمن للمؤمن كالبنيان"، لم يكتفِ بالصورة البيانية القولية التي قد تظل مجرد استعارة بلاغية في أذهان السامعين، بل عمد إلى "التشبيك بين أصابعه" ﷺ في حركة فنية وتعبيرية مذهلة.[2] إن هذا الفعل الجسدي يمثل في جوهره "قيداً بصرياً" يمنع المعنى من التشتت، حيث انتقل المفهوم من حيز "التشبيه الأدبي" الجمالي إلى حيز "التجسيد المادي" العياني؛ فالتشبيك هنا ليس حركة عابرة، بل هو "توقيع جسدي" على ميثاق غليظ من الأخوة، يهدف مقاصدياً إلى الحفاظ على "بيضة الأمة" وحماية "النفس الجماعية" من عوادي التفكك والتمزق. إن انغلاق الفراغات بين الأصابع في لحظة التشبيك يرمز إلى سد الثغرات الاجتماعية

والنفسية بين أفراد المجتمع، محولاً المفهوم الأخلاقي المجرد إلى "كتلة صلبة" مرئية تستعصي على الكسر، وهو ما يحقق مقصد "التعاون على البر والتقوى" في أعلى مستويات التمثيل الحسّي.

ب. مقصد القرب الوجودي والمسؤولية الحضارية (الإشارة بالسبابة والوسطى):

في قوله ﷺ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا"، وإشارته بالسبابة والوسطى وفرجه بينهما شيئاً [3]، نجد أننا أمام هندسة فراغية فريدة من نوعها؛ فالإشارة هنا لا تهدف فقط إلى بيان "علو المنزلة"، بل هي "إغراء بصري" ذكي يربط بين جهد اجتماعي محدد (كفالة اليتيم) وبين جزاء غيبي مطلق (المعية النبوية). إن تلك المسافة الضئيلة التي تركها ﷺ بين أصبعيه هي رسالة "تطمين نفسي" تمحو الوحشة عن اليتيم وتضع الكافل في رتبة "القرب الالتصاقي" من مقام النبوة. مقاصدياً، يعمل هذا الفعل الجسدي على تفعيل "التكافل الإنساني" لا كواجب أخلاقي ثقيل، بل كرحلة ممتعة نحو القرب الفيزيائي من المصطفى ﷺ، حيث تحولت الأصابع هنا إلى "أدوات مساحة" ترسم المسار المختصر نحو النعيم المقيم، مما يجعل الامتثال للأمر النبوي استجابةً بصرية ووجدانية قبل أن تكون استجابة فكرية صماء.

ج. مقصد التّحذير البنيوي وضبط المرجعية التّقوية (الإشارة إلى المركز):

تتأكد هذه القصدية حينما يعمد النبي ﷺ إلى "توطين" المفاهيم في أعضائها المناسبة، كإشارته المكررة إلى صدره ثلاث مرات بقوله: "التقوى هاهنا" .[4]إن هذا الفعل الحركي المتكرر يهدف إلى إحداث "نقلة إبستمولوجية" في وعي المتلقي، حيث يسعى ﷺ إلى نقل مركز الثقل في التدين من "المظاهر الخارجية" و"الأعمال الجوفاء" إلى "المقاصد الباطنة" و"المحركات القلبية". إن الإشارة هنا هي "إشارة إحالية" قوية المفعول، تعيد توجيه بوصلة الانتباه من "نبرة الصوت" إلى "جوهر الذات"، تحقيقاً لمقصد "تزكية النفس" وتجريد الإخلاص لله؛ فاليد هنا لم تكن تشير إلى عضو بيولوجي، بل كانت تطرق باب "العقل المدبر" للسلوك الإنساني، مؤكدةً أن استقامة الجسد تبدأ من استقامة هذا المركز، وهو ما يمثل قمة الوعي السيكولوجي في توجيه السلوك البشري عبر العلامة الحركية.

3.سيمياء الوجه والبصروجماليات التّبليغ الصّامت في الهدي النّبويّ

1.3. فلسفة "الوجه" كمرآة للمقاصد الوجدانية والبيانية:

إذا كان المبحث السابق قد ركز على "اليد" بوصفها أداة إشارية هندسية، فإن "الوجه النبوي" يمثل الفضاء السيميائي الأكثر تعقيداً ورهافة، فهو المركز السيادي للحواس، والمصدر الأول للرسائل العاطفية والتشريعية غير اللفظية. إن الوجه في سياق البلاغ النبوي لم يكن مجرد جزء من التكوين الجسماني، بل كان "لوحة تبليغية" تتغير ألوانها وتقاسيمها تبعاً للموقف المقاصدي المراد تحقيقه.[5] وتبرز أهمية هذا المبحث من كون "تعبيرات الوجه" تمثل لغة عالمية تتجاوز الحواجز اللسانية، وهو ما ينسجم مع مقصد "العالمية" في الرسالة المحمدية؛ فالرضا، والغضب، والتعجب، والشفقة، كلها مقاصد شرعية ظهرت في وجهه ﷺ قبل أن ينطق بها لسانه، مما جعل من "رؤية وجهه" ﷺ بحد ذاتها مصدراً من مصادر التشريع وتوجيه السلوك.

إننا أمام "تداولية بصرية" تجعل من أسارير الوجه "نصاً شارحاً"؛ فبينما يقرر اللّفظ الحكم، يقرّر الوجه "روح الحكم" ودرجة إلزاميته الوجدانية. إن هذا الترابط العضوي يحقق مقصد "البيان الشافي"، حيث يخرج المستمع من الحضرة النبوية وقد استوعب الحكم بعقله من خلال الكلمة، وتشربه بقلبه من خلال ملامح الوجه، مما يقلل من فرص "اللبس الدلالي" الذي قد يكتنف النصوص القولية المجردة.

2.3. سيمياء التبسّم وطلاقة الوجه (مقصد التّأليف والرّحمة):

يمثل "التبسم النبوي" أحد أرقى تجليات لغة الجسد في تحقيق مقصد "تأليف القلوب" و"الرحمة العالمية". فالتبسم ليس حركة عضلية عفوية، بل هو "إستراتيجية تواصلية" لكسر الحواجز النفسية بين المبلغ والمتلقي.

أ. مقصد تبديد الوحشة وتيسير البلاغ:

في الحديث المشهور: "ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي" [6]، نجد أن التبسم تحول إلى "سمة ملازمة" للهيئة النبوية. سيميائياً، يعمل التبسم كـ "مفتاح تداولي" يفتح مغاليق القلوب، مما يسهل عملية "التلقي التشريعي". مقاصدياً، يهدف هذا السلوك إلى ترسيخ قيم "السلم الاجتماعي" ونبذ الغلظة، فالدين الذي يُبلغ بـ "وجه طلق" هو دين يدعو للحب والاحتواء لا للتنفير والصد، وهو ما يجسد مقصد الشريعة في "جلب المصالح النفسية" للمكلفين وتأنيسهم بالتكاليف.

ب. مقصد التعليم بالحال (التبسّم كحكم فقهي):

في مواقف كثيرة، كان تبسّمه ﷺ هو "الرد التشريعي" على سؤال أو فعل، كما في تبسمه من قول الأعرابي أو تصرف الصحابة في بعض الوقائع[7]. هنا، يتحول التبسم من إيماءة عاطفية إلى "تقرير شرعي". إن هذا النوع من البلاغ الصامت يحقق مقصد "اليسر ورفع الحرج"، حيث يوصل الرسالة بالموافقة أو الرضا دون الحاجة إلى صرامة اللفظ، مما يجعل التشريع ينساب في ثنايا التعامل الإنساني برقة وجمال.

3.3. سيمياء الغضب والتّرهيب (مقصد حفظ الضروريات)

على الطرف المقابل، نجد أن "احمرار الوجه" أو "تغير الأسارير" كان يحضر بقوة حينما تُنتهك حرمات الله أو يُمس بمقاصد الشريعة الضرورية (كالدين والنفس والنسل).

أ. مقصد الزجر وحماية البيضة:

وُصف النبي ﷺ بأنه كان "إذا غضب احمر وجهه حتى كأنما فُقئ في وجنتاه الرمان". [8] هذا التحول اللوني في الوجه هو "علامة تحذيرية" كبرى تتجاوز في تأثيرها حدود "النهي القولي". إن مقصد "الزجر عن المحرمات" يتحقق هنا عبر "التخويف البصري" الذي يسبق الوعيد اللفظي، مما يخلق هيبة للتشريع في نفوس المخاطبين. إن وجهه ﷺ في لحظة الغضب كان يمثل "السلطة السيادية" للحق، وهو ما يخدم مقصد "حفظ النظام العام" وحماية القيم الأخلاقية من التميع.

ب. سيمياء الإعراض والبصر (مقصد التربية بالصمت):

حينما كان النبي ﷺ يعرض بوجهه عن شخص أو فعل، فإنه يمارس "عقوبة سيميائية" بليغة. فـ "الإعراض الجسدي" هو إعلان عن عدم الرضا المقاصدي، وهو أسلوب تربوي يهدف إلى "تقويم السلوك" عبر الحرمان من التواصل البصري النبوي. إن هذا "الصمت الحركي" يؤدي وظيفة "التعزير النفسي"، وهو مقصد تربوي يروم إصلاح الفرد وإعادته إلى جادة الصواب من خلال إشعاره بحجم الخطأ عبر الفراغ البصري الذي تركه الإعراض.

4.سيمياء الهيئة الكلية والدلالات المقاصدية لتموضع الجسد النّبوي

1.4. فلسفة "الهيئة الكلية" وجماليات الحضور في الفضاء التّداولي

لا يمكن قراءة لغة الجسد النبوية بمعزل عن "الهيئة الكلية" التي كان يتخذها المصطفى ﷺ في مجالس التشريع أو في سياقات الحياة اليومية؛ إذ إن الهيئة العامة للجسد تمثل "الإطار المرجعي" الذي يمنح الرسالة

القولية وزنها النوعي وقيمتها الوجدانية. إننا أمام مفهوم "الهيبة والمؤانسة" في آن واحد، وهي معادلة مقاصدية دقيقة تهدف إلى تحقيق مقصد "التبليغ مع التوقير"؛ فجسد النبي ﷺ في هيئته العامة كان يرسل إشارات "الاستعداد للبلاغ" و"الانفتاح على الآخر"، وهو ما نسميه في علم التواصل الحديث بـ"الجسد المفتوح"الذي يجسد مقصد الشريعة في "رفع الحرج" و"دنو المأخذ" .[9] إن الهيئة الكلية هنا ليست مجرد وضعية فيزيائية، بل هي "بيان حالي" يعكس سمو الرسالة وتواضع المبلغ، مما يخلق توازناً فريداً بين "جلال النبوة" و"جمال البشرية".

2.4. سيمياء الجلسة النبوية ومقاصد التعليم والتواضع

تتعدد هيئات الجلوس النبوي بتعدد السياقات المقاصدية، فكل جلسة تحمل في طياتها "شيفرة تربوية" موجهة للمتلقي:

أ. مقصد "التواضع العبودي" ونبذ الكبر (جلسة القرفصاء والإقعاء):

وُصف النبي ﷺ في حالات كثيرة بأنه كان يجلس "القرفصاء" أو يبرك كما يبرك العبد .[10] سيميائياً، يمثل هذا النوع من الجلوس "تقزيماً إرادياً" لكتلة الجسد ليوحي بالقرب من الأرض ومن الضعفاء، وهو ما يخدم مقصد "كسر الأنا" وترسيخ قيمة "العبودية المطلقة لله". إن هذا التموضع الجسدي هو رسالة بصرية مفادها أن هذا الدين ليس دين "أباطرة" بل دين "بسطاء"، وهو ما يسهل عملية "الاندماج الاجتماعي" وتحقيق مقصد "المساواة الإنسانية"؛ فالمعلم هنا يتنازل عن "كرسي العظمة" ليجلس في مستوى تلاميذه، مما يلغي الفوارق الطبقية ويفتح قنوات الاتصال الروحي.

ب. مقصد "الاهتمام التّام" والاحتواء السّمعي (الإقبال بالكلية):

كان من هدي النبي ﷺ إذا خاطب أحداً أو خوطب أن "يتحول إليه بكليته" .[11] إن هذا "الالتفات الكلي" هو أرقى تمثيلات "لغة الجسد الاحتوائية"؛ فهو يعطي المتحدث شعوراً بالمركزيّة والأهمية. مقاصدياً، يحقق هذا الفعل مقصد "حفظ الكرامة الإنسانية" و"جبر الخواطر"، فالتفات الجسد كاملاً يعني أن المبلغ يمنح السائل كل طاقته التواصلية، مما يمنع "الجفاء" ويعزز "الثقة المتبادلة" بين الراعي والرعية، وهو أصل عظيم في بناء "السلم النفسي" داخل المجتمع المسلم.

3.4. سيمياء المشية والالتفات (مقصد الوقاروالقوة)

تمثل "المشية النبوية" في التصور السيميائي "إيقاع الحركة التشريعية" في الواقع؛ فالمشية ليست مجرد انتقال من نقطة إلى أخرى، بل هي إعلان عن "هوية المنهج".

أ. مقصد "القصد والاعتدال" في الحركة:

وُصف ﷺ بأنه كان إذا مشى "تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب" .[12] هذه المشية التي توحي بالسرعة المتزنة والقوة الهادئة تعكس مقصد "الجدية في العمل" و"علو الهمة". سيميائياً، هي مشية الرجل الذي يعرف وجهته وهدفه، مما يبعث في نفوس الأتباع شعوراً بالأمان والقوة. إنها "مشية وسطية" تعبر عن مقاصد الإسلام في التوازن بين الاندفاع والتباطؤ، وبين الدنيا والآخرة.

ب. سيمياء "الالتفات العيني" مقابل "الالتفات الجسدي":

كان ﷺ إذا التفت "التفت معاً"، أي بجسده كله، ولم يكن يسارق النظر أو يلتفت بعنقه فقط .[13] إن هذا السلوك الجسدي يجسد مقصد "الوضوح والشفافية"؛ فالالتفات الكلي يطرد شبهة "التوجس" أو "الخفاء" أو

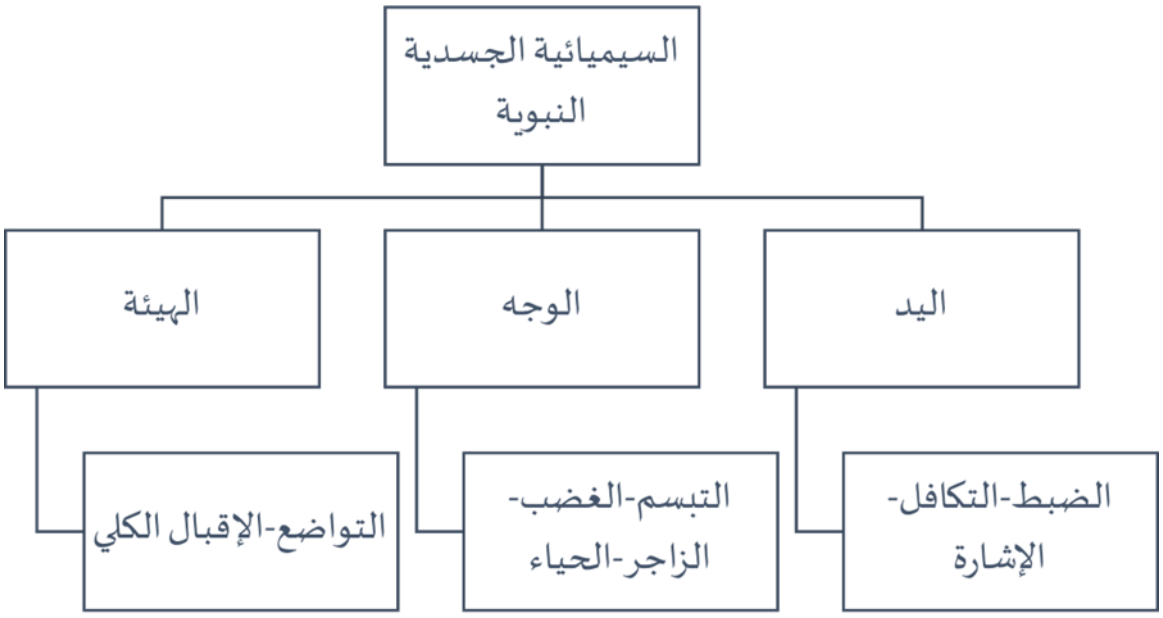
"الكبر". إنه فعل تواصل ينم عن "الصدق الصرف"، حيث يكون الجسد مرآة للنية، مما يرسخ مقصد "الاستقامة" في المعاملات الظاهرة والباطنة. إن المصارحة بالجسد هي المقدمة الضرورية للمصارحة بالقول، وهو ما يبني مجتمعاً قائماً على "المكاشفة" لا على "المواربة".

5. سيمياء العين والبصيرة النبوية (هندسة النظرة ومقاصد الاستيعاب)

1.5. فلسفة "النظرة" النبوية بوصفها استراتيجية استيعاب

تعد العين في المنظومة التواصلية النبوية القناة الأكثر تدفقاً بالدلالات "ما وراء اللفظية"؛ فهي لا تكتفي بنقل الصورة، بل تقوم بوظيفة "الربط الوجداني" بين المُبلغ والمبلغ إليه. إن "النظرة النبوية" لم تكن نظرة عابرة، بل كانت "نظرة استيعابية" تمنح المتلقي شعوراً بالحضور الكلي في وعي النبي ﷺ. سيميائياً، نحن أمام ما يعرف بـ "التواصل البصري" الذي يتجاوز مجرد الرؤية الفيزيائية إلى "الرؤية المقاصدية"؛ فالعين هنا هي الأداة التي تثبّت المعنى في روع السامع، وهي التي تمنح "الفتوى" أو "الموعظة" طابعها الشخصي الموجه، مما يحقق مقصد "التفهيم" و"رفع الالتباس".[14] إن هذه الهندسة البصرية تجعل من كل صحابي يشعر وكأنه هو المعني الوحيد بالخطاب، وهو ما يمثل ذروة الذكاء العاطفي والاتصالي في بناء الهوية الفردية داخل الجماعة.

ويمكن تلخيص هذه المنظومة السيميائية المتكاملة في المخطط الشّجري الآتي:



شكل 1 المخطط الشجري لسيمياء الأعضاء والمقاصد الشرعية المقابلة.

2.5. سيمياء "الالتفات العيني" ومقاصد الحياء والتقدير

تتوزع نظرات النبي ﷺ بين "الإقبال البصري" و"الإغضاء الحيائي"، وكل منهما يحقق مقصداً شرعياً وتربوياً بالغ الأهمية:

أ. مقصد "الحياء" وستر العورات النفسية (سيمياء الإغضاء):

وُصف النبي ﷺ بأنه كان "أشد حياءً من العذراء في خدرها"، وكان إذا كره شيئاً "عُرف في وجهه" دون أن يصرح به، وغالباً ما كان يميل ببصره أو يغضه.[15] سيميائياً، يمثل "غض البصر" هنا رسالة صامتة تهدف إلى مقصد "الستر" وعدم جرح مشاعر الآخرين. إنها "سيميائية الحياء" التي ترفض المواجهة البصرية الصدامية في

مواقف الخطأ البشري غير المقصود، مما يحقق مقصد "التأليف" بدلاً من "التعنيف"، ويمنح المخطئ فرصة للمراجعة الذاتية دون إراقة ماء وجهه.

ب. مقصد "الاهتمام والتقدير" (سيمياء النظرة الجامعة):

كان ﷺ يعطي كل جلسائه نصيبه من نظره، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .[16]إن هذه "العدالة البصرية" هي ترجمة حركية لمقصد "العدل والمساواة"؛ فالعين هنا توزع "التقدير الاجتماعي" بالتساوي، مما يمنع تسلل الحسد أو الشعور بالدونية بين الأتباع. إنها نظرة "جامعة" تؤلف بين الأشتات، وتحول المجلس النبوي إلى فضاء ديمقراطي بصري، حيث يمتلك الجميع حظاً متساوياً من "الرعاية النبوية"، وهو ما يعزز مقصد "الوحدة النفسية" للمجتمع.

3.5. "بكاء العين" وسيمياء الرحمة (مقصد الرقة واللين)

لم تكن العين النبوية جامدة، بل كانت "عينًا باكية" في مواقف الخشية والرحمة، وهو ما يشكل سيميائية "الدمع التشريعي":

أ. مقصد "الرحمة بالخلق" (الدمع عند الفقد):

حينما دمعت عيناه ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم وقال: "العين تدمع والقلب يحزن..." [17]، كان الفعل الجسدي (الدمع) هو "البيان العملي" لمقصد "الرحمة الإنسانية". إن هذا الدمع يشرعن العاطفة البشرية في إطارها المنضبط، ويكسر صنم الجمود الجاهلي الذي كان يرى في البكاء ضعفاً. سيميائياً، الدمع النبوي هو "توقيع بالماء" على رقة هذا الدين، مما يحقق مقصد "تزكية المشاعر" وربطها بالقدر الإلهي بجمال وتصبر.

ب. مقصد "الخشية والإخبات" (البكاء عند سماع القرآن):

في حديث ابن مسعود حين قرأ على النبي ﷺ فقال له: "حسبك الآن"، فنظر إليه فإذا عيناه تذرفان .[18] إن هذا البكاء الصامت هو "سيمياء الخشوع" التي تنقل المتلقي من الوقوف عند "جماليات اللفظ القرآني" إلى "جلال المعنى الإلهي". فالعين هنا تعمل كـ"شاهد عدل" على صدق التأثر، مما يحقق مقصد "تعظيم الشعائر" و"حضور القلب" عند تلاوة الوحي، وهو أسمى مقاصد التعبد.



شكل 2 مخطط تدفق الرسالة النبوية وتكامل المسارات القولية والحركية

6. سيمياء الجسد النّبوي في عصر الذكاء الاصطناعي (نحو نموذج اتصالي رقمي مقاصدي)

1.6. أنطولوجيا "القصدية" في الخوارزميات (من المحاكاة الآلية إلى المعنى النبوي)

يواجه الذكاء الاصطناعي (AI) في مرحلته الراهنة معضلة فلسفية وإبستمولوجية تكمن في الفجوة بين "المحاكاة الفيزيائية" وبين "القصدية الوجودية"؛ فبينما تنجح الشبكات العصبية العميقة في توليد حركات بصرية

تبدو في ظاهرها شديدة الواقعية، إلا أنها تظل حركات "جوفاء" تفتقر إلى الروح التداولية التي أسميناه في دراستنا بـ "القصدية التبليغية النبوية". إن النموذج النبوي يطرح على العقل التقني المعاصر "مرجعية أخلاقية" عليا في الاتصال البشري-الآلي؛ فالحركة الجسدية النبوية لم تكن نتاجاً لصدفة بيولوجية أو عبث حركي، بل كانت محكومة بمقاصد "البيان" و"الرحمة" و"الهداية".

ومن هنا، فإننا نذهب إلى أن تطوير أنظمة "الذكاء الاصطناعي العام" (AGI) يستوجب استلهام "التوازن السيميائي" النبوي الذي يجمع بين الهيبة والمؤانسة، وبين الجلال والجمال؛ فبدلاً من أن تكون حركة الروبوت أو الوكيل الذكي مجرد استجابة لـ "أوامر برمجية" جافة، يجب أن تصبح "فعلاً تداولياً" يراعي السياق النفسي والوجداني للمتلقي البشري. إن استحضار "النموذج النبوي" في تصميم واجهات التفاعل البشري الحاسوبي (HCI) يضمن تحقيق مقصد "أنسنة الآلة"، حيث تتحول الآلة من مجرد "أداة وظيفية" إلى "شريك اتصالي" يدرك قيمة "الالتفات الكلي" و"الإقبال البصري" و"التبسم الهادف"، مما يعيد الاعتبار للقيم الإنسانية في الفضاء الرقمي المتوحش.[19]

2.6. رقمنة "البيان غير اللفظي" (تحليل المشاعر والرؤية الحاسوبية في خدمة السنة)

إن تقنيات "الرؤية الحاسوبية" و"التعرف على الإيماءات" تفتح آفاقاً غير مسبوقة لاستعادة "المشهد النبوي" في الوعي المعاصر؛ إذ يمكن من خلال تحليل الأوصاف الحديثية الدقيقة -التي وردت في كتب الشمائل والدلائل- بناء "نماذج تمثيلية" تتجاوز القراءة الخطية للنصوص إلى "المعايشة البصرية" للحدث التشريعي:

أ. مقصد "التجسيد التعليمي" عبر الواقع المعزز والافتراضي (AR/VR):

إن إعادة تمثيل الحركات النبوية -مثل "تشبيك الأصابع" للدلالة على البنيان المرصوص، أو "الإشارة بالسبابة والوسطى" لبيان قرب كافل اليتيم- في بيئات تعليمية افتراضية غامرة، يساهم في تحقيق مقصد "تثبيت العلم" وتجسير الفجوة بين "النص" و"الواقع". إن الذكاء الاصطناعي هنا يتحول إلى "خادم للمقصد الشرعي"، حيث يفكك التجريد اللغوي ويحوله إلى "تجربة حسية" تلامس شغاف القلوب وتستقر في خلايا الذاكرة البصرية للأجيال الجديدة، مما يقلص المسافة الزمكانية بين المتلقي المعاصر وبين اللحظة النبوية التأسيسية، ويعيد الاعتبار لـ "التعليم بالحال" الذي هو روح التربية المحمدية.[20]

ب. مقصد "الضبط السلوكي" وتوليد المحتوى الأخلاقي الذكي:

يمكن برمجة "الوكلاء الأذكياء" (AI Agents) لتبني "سيميائيات مقاصدية" في تفاعلاتها مع المستخدمين؛ ففي مواقف "الوعظ الرقمي" أو "الإفتاء الآلي"، يمكن للآلة أن تستلهم "سيمياء الإعراض" النبوي عند رصد محتوى ينتهك المقاصد الضرورية (كالدين والنفس والنسل)، أو تستخدم "سيمياء التبسم" و"طلاقة الوجه" عند تقديم البشارات والحلول الاجتماعية. إن هذا الربط العضوي بين "الأخلاق النبوية" وبين "الاستجابة الحركية الرقمية" يساهم في خلق فضاء إلكتروني "آمن" و"مقاصدي"، يراعي الآداب النبوية ويحمي المستخدم من "الاغتراب الرقمي" عبر تقديم نموذج تقني يحترم "كرامة الإنسان" ويهدف إلى رقيه الروحي والمادي معاً.

3.6. نحو منصة "بَيان" الرقمية (مشروع Startup للتّحليل اللّساني والحركي المتكامل)

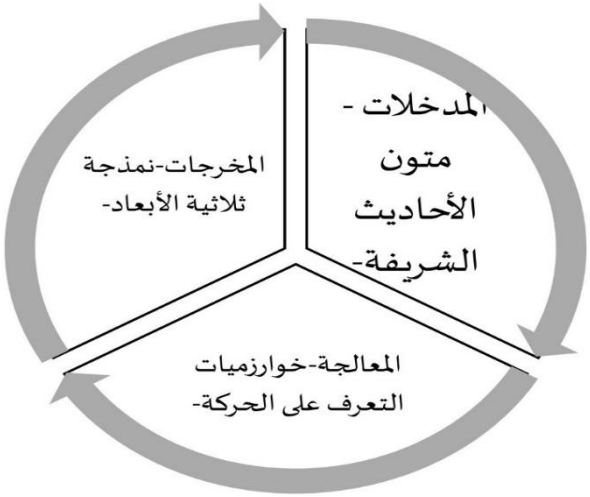
إنّ الرؤية المستقبلية التي يطرحها هذا البحث تتمثل في ضرورة الانتقال من "الفقه النصي" إلى "الفقه السيميائي الحاسوبي" من خلال منصات رقمية ذكية (مثل مشروع "بَيان" للتحليل اللساني والمقاصدي)، والتي تهدف إلى:

أ. مقصد "تحليل الخطاب السيميائي الشامل":

من خلال خوارزميات متطورة تربط بين "الدلالة اللفظية" للحديث وبين "الحركات الوصفية" المصاحبة له في متون الرواية، يمكن استنباط "مقاصد خفية" لم تكن تظهر عند الاكتفاء بالتحليل اللغوي الصرف. إن الآلة هنا تعمل كمساعد للباحث المتخصص في رصد "التوافق" أو "التخالف" بين القول والهيئة، مما يعمق فهمنا لـ "مراد الشارع" ويفتح آفاقاً جديدة في أصول الفقه وعلم الكلام؛ فالجسد النبوي في هذه المنصة ليس مجرد "وصف تاريخي"، بل هو "بيان إحصائي ودلالي" يرفد النص ويؤطره.

ب. مقصد "العالمية التواصلية" والتبليغ الكوني:

بما أن "لغة الجسد" هي لغة عالمية يفهمها الإنسان بمقتضى الفطرة قبل الثقافة، فإن استخدام الذكاء الاصطناعي لترجمة "الإيماءات النبوية" إلى دلالات كونية يساهم في تحقيق مقصد "البلاغ العالمي". إن هذه المنصات الرقمية ستمكن العالم -بمختلف لغاته- من رؤية "جماليات الإسلام" متجسدة في "سلوك نبوي" يحترم الآخر، ويقدر الإنسان، ويفيض بالرحمة عبر نظرة عين أو إشارة يد، مما يحول "البيان النبوي" من نص محلي أو لغوي إلى "رسالة بصرية إنسانية" عابرة للقارات، قادرة على مواجهة موجات "الإسلاموفوبيا" عبر قوة "الحال النبوي" المصور والمحلل تقنياً.[21]



الشكل3 البنية الهندسية لمنصة -بيان-لتحليل السلوك النبوي باستخدام الذكاء الاصطناعي

7.خاتمة:

في ختام هذا التّطواف المعرفي بين ثنايا "الجسد النبوي" وسيميائياته المتعددة، ندرك أننا لم نكن بصدد دراسة حركات فيزيائية مجردة، بل كنا أمام "منظومة بيانية متكاملة" صاغها الوحي لإخراج النص من حيز التجريد القولي إلى فضاء التجسيد المقاصدي؛ فجسد النبي ﷺ كان يمثل "المختبر العملي" الذي ذابت فيه الفوارق بين "المثالي" و"الواقعي"، وبين "الكلمة" و"الحال".

أولاً: النتائج المستخلصة

من خلال الحفر السيميائي والمقاصدي في بنية الهدي النبوي، خلص البحث إلى جملة من النتائج المركزية:

- ✓ وحدة البيان: إن لغة الجسد النبوية (الإشارة، الوجه، الهيئة) تمثل جزءاً أصيلاً من "البيان النبوي" الواجب اتباعه، وليست مجرد لوازم بشرية عفوية؛ فهي تمنح النص "قيداً دلالياً" يمنع انزلاق المعنى.
- ✓ القصدية المقاصدية: كل حركة جسدية نبوية كانت محفوفة بـ "قصدية تبليغية" تروم تحقيق مقاصد شرعية محددة؛ فالتبسم يحقق "التأليف"، والالتفات الكلي يحقق "التقدير الإنساني"، والتشبيك يحقق "الوحدة البنيوية".
- ✓ عالمية اللغة الحركية: أثبت البحث أن لغة الجسد النبوية هي "لغة كونية" تتجاوز الحواجز اللسانية، مما يجعلها الأداة الأكثر فعالية في "البلاغ العالمي" وتقديم الإسلام كدين جمالي ورحماني للإنسانية جمعاء.
- ✓ الاستشراف الرقمي: إن الربط بين السيميائيات النبوية والذكاء الاصطناعي ليس مجرد ترف فكري، بل هو ضرورة منهجية لأنسنة التكنولوجيا ورقمنة "القيم الحركية" النبوية عبر منصات ذكية (مثل مشروع "بَيان") تخدم البحث العلمي والتربوي.

ثانياً: التوصيات المنهجية

بناءً على ما تقدم، يوصي البحث بالآتي:

- ✓ تجديد الدرس الأصولي: ضرورة إدراج "سيمياء الجسد" كأداة من أدوات استنباط الأحكام والمقاصد، وعدم الاقتصار على المركزية اللفظية في التعامل مع السنة.
- ✓ الدراسات البينية: تشجيع البحوث التي تزاوج بين علوم الحديث وبين علوم الاتصال وعلم النفس الحركي والذكاء الاصطناعي لتقديم قراءات معاصرة للسيرة النبوية.
- ✓ الإنتاج الرقمي المقاصدي: دعوة المؤسسات التقنية لتطوير محتوى افتراضي (*AR/VR*) يعيد تمثيل "الهيئة النبوية" وفق الضوابط الشرعية، لتعزيز التعليم بالقدوة البصرية للأجيال الصاعدة.
- ✓ إن هذا البحث ليس إلا خطوة أولى نحو "فقه سيميائي" شامل، يطمح إلى استعادة "روح الجسد المبلغ" في وعينا المعاصر، ليبقى الهدي النبوي حياً، نابضاً، ومؤثراً في كل زمان ومكان.

الهوامش

[1] الغزالي، أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م، ص 142 وما بعدها. وينظر أيضاً: الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن القيم، ج2، ص 315.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ، رقم الحديث (481).

[3] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ، رقم الحديث (6005).

[4] مسلم، بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث (2564).

[5] مسلم، بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب خطبته ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث (867).

[6] ينظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج1، ص 160 (في وصف هدي النبي في كلامه وسكوته وضحكه).

[7] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب المناقب، حديث جرير بن عبد الله، رقم (3073).

[8] ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، ج1، ص 125 (في وصف شمائله وحسن عشرته).

[9] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب خطبته ﷺ، رقم الحديث (867).

[10] ينظر: الجوزية، ابن قيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ج4، ص 210 (بتحليل سيميائي للمواقف النبوية).

[11] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب في الجلوس على المائدة، رقم الحديث (3771).

[12] ينظر: الترمذي، أبو عيسى، الشمائل المحمدية، تحقيق: محمد عفيف الزعبي، المكتبة الإسلامية، بيروت، ص 45 (وصف التفات النبي ﷺ).

[13] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في صفات النبي ﷺ، رقم الحديث.**(2330)**

[14] ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مرجع سابق، ص 138 (في كمال خلقته وجمال سيرته).

[15]ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2، ص 345 (في مقام المشاهدة والحياء).

[16] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث (3562).

[17] ينظر: الترمذي، الشمائل المحمدية، مرجع سابق، ص 162 (باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ).

[18] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ "إنا بك يا إبراهيم لمحزونون"، رقم الحديث (1303).

[19] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب بكاء النبي ﷺ عند قراءة القرآن، رقم الحديث (5050).

[20] ينظر بالتفصيل: شايع، محمد بن عبد العزيز، الذكاء الاصطناعي والعلوم الشرعية: آفاق وتحديات إبستمولوجية، مجلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد (12)، العدد (2)، 2024م، ص 88-105.

[21] ينظر: الزحيلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته: الوجيز في أصول الفقه، دار الفكر، دمشق، ط12، 2022م، ص 45 (بإسقاط تحليلي على وسائل التعليم الرقمي الحديثة).

المصادروالمراجع

أ- المصادر(كتب السنة والوحي):

- ✓ البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ.
- ✓ مسلم، بن الحجاج القشيري. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- ✓ الترمذي، محمد بن عيسى. الشمائل المحمدية. تحقيق: محمد عفيف الزعبي، المكتبة الإسلامية، بيروت، ط1، 1405هـ.

ب- المراجع (الكتب والدراسات):

- ✓ ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية. زاد المعاد في هدي خير العباد. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27، 1415هـ.
- ✓ ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية. أعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.
- ✓ الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.
- ✓ الشاطبي، إبراهيم بن موسى. الموافقات. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم، القاهرة، ط1، 1997م.
- ✓ عياض، بن موسى السبتي (القاضي عياض). الشفا بتعريف حقوق المصطفى. دار الفكر، بيروت، ط1، 1409هـ.

✓ الغزالي، أبو حامد. المستصفى في علم الأصول. تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.

ج- الأطروحات والمجلات العلمية:

✓ شايع، محمد بن عبد العزيز. "الذكاء الاصطناعي والعلوم الشرعية: آفاق وتحديات إبستمولوجية"، مجلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد 12، العدد 2، 2024م.